

التسلسل الزمني اختطاف.

خافيير إسبينوزا وريكاردو غارثيا فيلانوفيا المعتقلين في سوريا منذ 16 سبتمبر/أيلول.

إلموندو / بيروت

عندما كان على بعد بضعة أميال فقط من إنهاء تغطيته للنزاع السوري وقع ضحية حظه العاثر. تم اختطاف مراسل إلموندو المخضرم خافيير إسبينوزا والمصور الشهير ريكاردو غارثيا فيلانوفيا يوم 16 سبتمبر/أيلول الماضي في نقطة تفتيش في منطقة تل أبيص في محافظة الرقة المتنازع عليها وعلى مقربة من الأراضي التركية بينما كان يحاول مغادرة سوريا بعد أسبوعين من التغطية حول نتائج الحرب الأهلية في محافظة دير الزور.

تم القبض على الصحفيين إلى جانب أربعة مقاتلين ينتمون إلى كتيبة أحفاد المصطفى، أحد ألوية كتائب الفاروق والتي كان من المفروض مبدئياً أن توفر لهم الحماية اللازمة. بعد ذلك، تم إطلاق سراح المعتقلين السوريين بعد مرور 12 يوماً، ولكن الصحفيين الأسبانيين لم يفرج عنهما. في البداية، قال الخاطفون المنتمون إلى الدولة الإسلامية في العراق والشام، وهي منظمة راديكالية قادمة من العراق ومستقرة فوق الأراضي السورية، بأنهم سيسجوبونهما فقط للتحقق من أنهما ليسا جاسوسين. ولكنه بعد مرور الوقت، تم إلحاق أسماء الأسبانيين بقائمة المختطفين في الرقة، وهي سلسلة طويلة من الأسماء العربية والأجنبية تكبر يوماً بعد يوم.

لم تكشف الاتصالات غير المباشرة مع الخاطفين، والتي كانت وراء الصمت الإعلامي الذي أحيط بهذه القضية لأكثر من شهرين، ما يريدونه مقابل حياة الأسبانيين. يبدو أن الحركة الراديكالية -التي كانت في السابق تشكل فرعاً في تنظيم القاعدة، ولكنها لم تعد الآن تمتثل لأوامر زعيمها، أيمن الظواهري- قد فرضت نفسها رغم الفطائع التي ارتكبتها وصراعها مع الجماعات المسلحة الأخرى التي أقحمتها في مواجهات مع جميع الكتائب المعارضة في سوريا تقريباً، بما فيهم الإسلاميين.

مازالت الدولة الإسلامية في العراق والشام تحتفظ بالعديد من الأجانب المختطفين في معظم المحافظات التي تحكم عليها سيطرتها إلى حد ما. لا يهم حالة أو جنسية أو طبيعة عمل الرهينة: وأكبر مثال على ذلك هو خطف الكاهن الإيطالي باولو دالوليو من قبل نفس الجماعة يوم 29 يوليو/تموز في الرقة بينما كان يحاول التوسط لإطلاق سراح الرهائن الآخرين. يعتبر دالوليو، الذي كرس حياته للعمل من أجل التعايش الديني السوري، رمزا للتسامح والتعايش بين أولئك الذين أطلقوا الثورة.

وهو ما حدث أيضاً مع الصحفيين الأسبانيين اللذين قاما بالعديد من الرحلات إلى البلاد وهي في حالة حرب متحدين المخاطر التي قد يسببها لهما أحد أعنف الصراعات في الوقت الراهن. عندما ذاع خبر خطف خافيير إسبينوزا وريكاردو غارثيا فيلانوفيا في سوريا، قرر أحد الناشطين المعروفين في حمص التدخل للإفراج عنهما. بعد ثلاثة أيام من الهروب من نقط التفتيش ومن القنابل، وصل أخيراً إلى شمال البلاد حيث عقد عدة اجتماعات مع زملاء الخاطفين لإقناعهم بأن الأمر يتعلق بحالة استثنائية. "بعدما رفضوا طلبي في العديد من المرات، غضبت وصرخت في وجههم: أين كنتم جميعكم عندما سقطت بابا عمرو؟"، تساءل الشاب في إشارة إلى حي الشهداء في حمص الذي أصبح رمزا للقمع الوحشي للدكتاتورية السورية. "لم أركم هناك. ولكن خافيير كان هناك، يساعدنا لنقل جرحانا".

تعكس هذه العبارة خيبة الأمل التي يحس بها العديد من السوريين أمام موجة الإختطاف التي تنفذها الدولة الإسلامية في العراق والشام، وهي سياسة تشجع الصحافة الدولية على العمل حصراً جنباً إلى جنب مع النظام لحماية سلامة موظفيها. ويعكس هذا التعليق أيضاً الصورة المهنية التي تركها كل من إسبينوزا وغارسيا فيلانوفيا في هذه الثورة التي قاما بتغطيتها منذ بداياتها، على الرغم من الصعوبات الشديدة. يعتبر مراسل صحيفة إلموندو في الشرق الأوسط والمصور المستقل من بين الصحفيين الدوليين الأكثر زيارة لهذه البلاد العربية للتنديد بمعاناة الشعب الذين يعيش في أوضاع مزرية.

دائما ما ركزا في رحلاتهما المتعددة، سواء معا أو بشكل منفصل، إلى سورية منذ ربيع عام 2011 على المناطق الأكثر تضررا من القصف المدفعي والطيران الحربي أو على المناطق المحررة وتلك التي تتواجد تحت الحصار العسكري. حمص وإدلب وحلب والرقة ودير الزور... ومن هذه الأخيرة قاما بتوثيق الدمار الهائل الذي لحق بالمدينة وعودة النشاط إلى المدارس السورية وسط القصف ووجود عيادة خاصة لمساعدة النساء في وضع حملهن وسط التفجيرات.

أدى عملهما إلى جانب جبهات المتمردين إلى إدراج إسميهما ضمن القوائم السوداء التي قدمتها حكومة دمشق إلى الأمم المتحدة للكشف عن الصحفيين غير المرحب بهم، خصوصا بعد التغطية التي قام بها خافيير إسبينوزا أثناء سقوط بابا عمرو: بعد نجاحه بأعجوبة من القصف الذي استهدف مركز الصحافة حيث كان يتواجد والذي على إثره الصحفيان ماري كولفين وريمي أوشليك وأصيب زميلان آخران بجروح خطيرة، قرر البقاء في ذلك الحي للتنديد بالمجازر التي ترتكب ضد المدنيين. ولم يوافق على الخروج إلا مع القافلة الأخيرة من المدنيين التي تم تهريبهم بقيادة نشطاء ومقاتلين عبر أنبوب قديم للصرف الصحي: بعد خروجهم نصب لهم الجيش السوري كمينا وأمطرهم بوابل من الرصاص. اختفى بعد ذلك ثم عاود الظهور بعد مرور 48 ساعة دون أن يصاب بأذى: كان قد قاد جرحين في محاولة هروب يائسة أدت بهم في نهاية المطاف إلى لبنان.

بعدما عثرت الحكومة السورية على أشياء تخصه بجانب العديد من الجثث ظنت بأن إسبينوزا قد مات، ولكنه في ذلك الوقت كان يستنكر ما شاهده من قتل للمدنيين. لم تردعه تلك التجربة التي تتضاف إلى باعه الطويل في تغطية النزاعات منذ 25 عاما من مواصلة تغطية الثورة السورية، بل على العكس من ذلك، عاد بعد فترة وجيزة مع ريكاردو غارثيا فيلانوفيا إلى الجبهة الشمالية التي شهدت الكثير من التغييرات في الآونة الأخيرة.

لم يكن قرار المصور المنحدر من مدينة برشلونة، والذي يتعامل مع العديد من وسائل الإعلام الدولية المرموقة، مواصلة تغطية الأحداث في سوريا سهلا على الإطلاق. على الرغم من أنه يعمل لحسابه الخاص، لم يكن فيلانوفيا ينتظر الأوامر للدخول إلى عمق البلاد لتوثيق الفظائع التي ترتكب ضد المدنيين. حيث اعتاد على قضاء فترات طويلة داخل سوريا وعيش نفس المصاعب التي تواجه أي مواطن آخر في البلاد إلى أن تعرض لحادث خطير أجبره على تغيير أسلوب عمله: تم اقتحام البيت الذي يعيش فيه في حلب إلى جانب فريق من الأطباء من قبل أعضاء الدولة الإسلامية في العراق والشام وأخذوه معهم بالقوة. وهو حادث لم يتم الكشف عنه أبدا. بعد إخضاعه لعدة استجوابات، تم إطلاق سراح فيلانوفيا بعد أن خلص خاطفيه إلى أنه ليس جاسوسا وإنما مراسل مستقل.

لم تثنه تجربة بابا عمرو ولا اعتقاله عن مواصلة مسيرته مع السوريين. يمتلك فيلانوفيا وإسبينوزا روح التضحية اللازمة لتغطية الصراعات، حيث الصعوبات -والعقوبات في كثير من الأحيان- ونقص الغذاء أو الماء والظروف غير الصحية والخوف والخطر لا يحيدهما عن تحقيق الهدف. إنهما يؤمنان بالصحافة باعتبارها منبرا للتنديد وخدمة اجتماعية وهو ما يفسر اختيارهما في الكثير من الأحيان الأماكن الأكثر قسوة وخطورة لإيصال صوت سكانها، دون الإكتراث بتعريض حياتهما للخطر.